جدل المقدّس في الشعر

قراءة في نص" نصوص مشاكسة قليلا"

من ديوان (و.. شعر) للشاعر عدنان الصّائغ .

مستخلص:

إنّ نتائج التعبير عن المقدّس في الشّعر لا يمكن أن نفيد منها كثيراً في فهم الإيمان، على أنها بمقدار ما تساعدنا في استجلاء تركيبة فكريّة، وتعابير مشوبة بالقداسة وكذلك معاني ربّما تبدو منحرفة أحيانا ؛ إلاّ أنّ الاكتفاء بطريقة ما تُفهَم فيها الحقيقة وتُقال، أجدى في رفد النصوص الشعرية برؤية القداسة، فتلك الطاقات التي يملكها العقل ليكشف من خلال ماهيتها قيمة المقدس هي في مثل هذا الموقف دليل على أزمة الثقة، بين الواقع، والرؤية التي يحتازها الشاعر لنفسه، فعندما تنزع هذه الرؤية، بسبب المسلّمات المسبقة، إلى مقاومة الانزلاق ـ بسبب المفارقات ـ إلى الإيمان من عدمه، تبقى الصيرورة الواعية هي التي تحدد مستوى هذا الانزلاق؛ لأنّ منحى التصورات يتعدّى تكريس البنى الماديّة، مما يشكل أنماطاً بنائيّة حدسيّة لمعرفة حقيقة المقدس .

مقدمة

لقد أظهرت التناقضات التي تحيط بنا ردّات انفعاليّة في نفوسنا ــ من نوع خاص ــ قد لا تبدو مناسبة لفاعلية المقدس؛ بدلالة الارتباط المتوتر بين ذواتنا، والمقدس، الذي يمثل في ذاته جانبا أكثر انتظاما، من تلك الانفعالات العاطفية التي تلازمنا، بين حين وآخر، وقد تكون العفويّة ــ بأبسط تعبيراتها ــ هي مثار ذلك القلق ، والاضطراب الّذي لا يسوّغ إلاّ على إنّه غريزة بدائيّة، تسوّغ لنفسها التعبير عن مكنوناتها ، بقوّة انفعالية، تحاول بناء حوار خصب ، مع أشكال الأثر كافة؛ فالمعنى الّذي يطرح نفسه، تكمن في داخله مجموعة من التحولات التي تنتجها العلاقات الدّاخلية في النّص؛ ، تحقق حضورها وتناميها، مشكّلة حالة حاضرة تمنحنا انفعالات من نوع خاص، وكأنها تعبير ارتدادي عن انفعال عميق.

أمّا السياقات الفكرية التي يمنحها النّص، فلها أبعاد متوازية، يفرضها المحمول الفكري الذي يهيئ للنص مدارات إنتاج المعنى، فهي ليست حدّاً خارجيّا، دخيلا، بل هي التي توجه العلاقة بين مظهر المقدس، والتوتر الدّاخلي الّذي يمثل في نموّه، وارتداداته مظهر الذّاتيّة السرّي، فلا يمكن أنْ تقدم تفسيرا مقنعا لطريقة أدائها، لذلك تجنح اللغة في الشّعر إلى القفز فوق مستوى أدائها؛ لتنشغل

في ممارسة تتبدى بالاختبار، والمشاعر العقلانية، لتنبجس في أعماقها مداليل تنمّي انفعالنا ، وتبسط طبيعتنا النفسيّة؛ وكأنّ قوانا الذهنيّة، والانفعاليّة، تعدّ نفسها إعدادا خاصّا، وتمارس مراسيم أحاسيسها على نحو ما ، مسيطر عليه، بنظام يحفل بالمعنى، والتّناغم.

في ظل هذه الرؤى وما يتمظهر عنها، يظهر الوعي بالمقدّس في التعبير الشّعري، معنصرا رؤيتنا، ومسيطرا على نفوذنا ، بحبكة من الانذهال، الّذي يكون الأسمى في التعبير بحرفيّة عنه؛ ليتحوّلَ إلى جدلٍ تفرضهُ الرؤية الأخرى، بناءً على هذا ستكون وقفتنا مع جدل المقدس في " نصوص مشاكسة قليلا" للشاعر العراقي عدنان الصائغ، آخذين بلطف النظر، ما يشتمل عليه هذا الجدل من رؤية تتحول فيها مهمة الأديب إلى كشف حقيقي لتلك الانفعالات، والمشاعر التي يمارسها الانسان مع ذاته، فهو لا يستطيع التغلب على أهوائه، وعواطفه، فكأن التّجربة تملى عليه، فيمارسها بحسب رغبته، حتّى وإن كان فيها تناقض مع النظام الأخلاقي، ولا ريب من أنْ تؤلف إفصاحاً، يؤمن به هو أو غيره.

تمهيد:

ما دام النّص الشعري قد أكسب نفسه حيّزا خاصّاً به، بعثر فيه مكوناتهِ على نحو خاصٍ، وانفرد بترتيب رؤاه بقدرةٍ فائقة تكشف رؤيته للعالم والأشياء، فقد تفادى أن يهادن تمظهرات الوجود ، فهو " يقول شيئا ويعني شيئا آخر"[i] خاصّا جداً يحبوه صيغته كمتغيّر، ويفضي به ــــ مصحوبا بقدرةٍ قاهرة على ارتدادات الشعور، حتّى أننا نرضى به عادة ، وكأنّه أمرٌ جليٌّ ــــ إلى منعطف التخييل الذي يترسم مجرى العواطف والأفكار ، وكأنّه تعاويذ بدائيّة تقوى على إخضاعنا لاستجابة من نوع ما.

وبحسب تمظهرات النص ، وما يحيل إليه من رؤى وأفكار ، سواء أكانت ركيكة أم باهرة، يقدّر لنا كمتلقين، تدرجَ مستويات الأثر الشّعري، إنّ هذه النظرة برمّتها قائمة على أساس جدلٍ مقترح لا يلبث أن يكون مصحوبا بقدرة من نوع ما تفسّر نفسها بطريقتها الخاصّة ، فهي في وسعها أن تستولي على اختيارنا العقلي ، بشكل عام خارج مدى التأويل ، فتكون أشبه بالبنية الصادمة مع احتفاظها بعفويتها على أن تكون بتعدد مستويات فهمها" لعبة حرّة للدالات تنفتح باستمرار، بتعدد القراءة"[ii] مؤدية إلى الانزياح الذي ينذر بتحقق صيرورات جديدة لِمعانٍ تستند إلى تجانس كلّ ما هو مقترح من إمكانيات يختزنها الفضاء الشعري، وكأنها" الحلم الذي به يعيد المرء التوازن بين الممكن

واللاممكن"[iii] . فمحاولة القبض الشعري على حقيقة ما هو متجاوز للتركيبة العقلية للوجود ، كالمقدس ــ على سبيل التمثيل ـــ يقدم تفسيرا يتصادق مع كلّ الانفعالات التي لا تزال تشعر بالغرابة والاندهاش حينما ترافقها حالات " من التناسق الدينامي، أو التوافق الجدلي بين المعنى والرمز"[iv] وبالتالي فإنّ الانتقال بالتجربة ــ أيا كان نوعها ــ يحيل لنا فرصة باستئناف تجاوزها على نحو مطّرد، تجاوزا يعمل "على استئناف كينونة الأشياء ، ليبني منها عملا متّحد الأجزاء"[v]، لذلك ينهض النص الشعري مكتنفا باللغز، فهو أشبه بالعتمة التي تتدفّق منها ـــ وعلى نحو مفاجئ ـــ حالات أكثر إثارة، تفسرها هي ، إما أن تبقيها مختلطة بأحاسيس أشد تماثلا بغموضها، أو أنها تذهب بنا بعيدا، خارج حدود الحسّ المتصلةِ بها.

ثم يأتي دور الوعي في رصف تلك المكونات بهذا الشكل الكتابيّ الّذي نقرؤه ، مع علمنا أنه لا يكون دليلا على "عبقريّة أصيلة إلاّ بقدر ما {يكون محكوما} بانفعال طاغ"[vi]، ليكون السبب الأوّل في إكساب المعنى شعريته ، بوصفه السّلطان الكلّي القدرة ، الذي لا يمكن التنويه به إلاّ من خلال النّص نفسه، إذ ليس أمام الحسيّة التي أمامنا غير اكتشاف شرخ الدّخول فيه وارتهان نفسها لسلطانه؛ لأنها معه قادرة على " خلق مركبات جديدة للمعاني"[vii].

وتعدّ تجربة المقدس من تلك التجارب التي تصطف لتدافع عن وجودها كونها تؤدي دورا مهما عبر محمولاتها التي تتأرجح بين مفهوم فكريّ خالص، وبين إحساس شديد، يختصر مسافة الوعي، وكأنّه رؤية ساذجة لاتني أن تكون سبيلا للتعبير عن عاطفة دينيّة بدائية تعترض مقومات العقل على نحو ما يشاهد ــ مثلا ــ عند الصوفية.

انطلاقا من هذا المعنى، نرى أنّ إشكاليّة الظواهر المقدسة، وتبني حقائقها في الشّعر إدراك خاصّ لهذه الحقائق، وسعي إلى كشفها ، ومزاوجتها مع الواقع؛ حتى نتجاوز بهذا الفهم النّطاق الضيق لماهية الشعر عن كونه مجرّد آلية عاجزة للتعبير عن عواطف فردية متباينة، فـ" ماهية الشّعر الحقة لا تقوم في التّدفق التلقائي للأحاسيس، والعواطف، وليست هذه الماهية بالأمر الذي نتلمسه بالنّشاط التخييلي، أو الشغف بالحق، والجمال، أو في تحقيق أكبر قدر من اللّذة، والمتعة؛ فكلّ هذه الأمور من لوازم الماهية، ولكن أيّا منها لا يؤسس الطبيعة النهائيّة للشعر"[viii]، بل تقوم على ما يمكن أنْ يؤسس له ، أو يكون شرطه أنّه عملية خلق ، تتجاوز حدود الزّمان والمكان، لتتواصل مع

المطلق، وتشكل جوهر الحقيقة الشّعرية، متطامنة مع التحولات الفكرية ، لا بشكل عشوائي ، فاقد كلّ صلة بالموروث، والمحيط العام، ليكون النّص" محطة تحولات طويلة"[ix].

تمثلات المقدس في الشعر

إنّ العمل من أجل كشف الرّوابط ما بين الذات والمقدس، وتشكيل خطاب من نوع ما، يستهدف ضروبا من المنطق المفاهيمي، وترجمتها على نحو يصطنعه الخيال الشّعري ، هو خلق معنى مضاف، إنّ هذه الدرجة العالية من حضور المقدس الديني في الشعر لا يعني احتفاء بالمقدس كما يبدو لنا أوّل وهلة ، فقد يمثّل ملمحا من ملامح مزاولة انتاج المعنى، بالاعتماد على المقدس، الذي يشكل مدخلا قرائيا وتأويليا فاعلا يمكن من خلاله استبطان وتفكيك بنية المعنى الجديد بطريقة عكسيّة، ويشي أيضا بقدرة الشاعر على مزاولة انتاج معنى (يضاهي) ما ينتجه المقدس، فيحتل الشاعر دور المؤوّل بالاعتماد على قدرته القائمة على الجدل ، والمسكونة بأهميّة دوره في صنع الوجود .

إنّ نتائج التعبير عن المقدّس في الشّعر لا يمكن أن نفيد منها كثيراً في فهم الإيمان، على أنها بمقدار ما تساعدنا في استجلاء تركيبة فكريّة، وتعابير مشوبة بالقداسة وكذلك معاني ربّما تبدو منحرفة أحيانا ؛ إلاّ أنّ الاكتفاء بطريقة ما تُفهَم فيها الحقيقة وتُقال، أجدى في رفد النصوص الشعرية برؤية القداسة، فتلك الطاقات التي يملكها العقل ليكشف من خلال ماهيتها قيمة المقدس هي في مثل هذا الموقف دليل على أزمة الثقة، بين الواقع، والرؤية التي يحتازها الشاعر لنفسه، فعندما تنزع هذه الرؤية، بسبب المسلّمات المسبقة، إلى مقاومة الانزلاق ـ بسبب المفارقات ـ إلى الإيمان من عدمه، تبقى الصيرورة الواعية هي التي تحدد مستوى هذا الانزلاق؛ لأنّ منحى التصورات يتعدّى تكريس البنى الماديّة، مما يشكل أنماطاً بنائيّة حدسيّة لمعرفة حقيقة المقدس .

فإذا ما تطرقنا إلى خطاب ما هو قدسي في الشّعر، علينا أن نتيقن بدءاً أنّ هناك ما يسمى حدساً، فالانفعال النّاجم عن موقف ما ، هو تفسير من جهة الانفعال؛ لأنّ قدرة العقليّ لم تعد معنيّة حتّى تضعَ تفسيراً من نوع ما.

فالعفوية الصّادرة هي رسالة ترصد ملامح الإيمان والشّك في آنٍ معاً، لافتة إلى تبني نوع من العلاقة في التعبير عن الإحساس الشّاك، ومحاولة إيجاد ما يلبي الاهتمام الدّيني، فالشّكّ لا يعني أنك تضع

المقدّس في غير مكانه ، إنّه نقطة البدء لاستكمال المعرفة، والحصول على ردّ منطقي، ففي نص " نصوص مشاكسة قليلا" الذي يبدأ:[x]

يالناطقُ باسم الله !

......لترهبني

ربّي لم يحتج سيفك

كي تُقنعني

إنّ عبارة(لترهبني، تقنعني) تؤديان لفضاء متوتر ينسحب على جسد النّص، فبين ما يمكن أنْ يكون فعلا، وما بين ما هو كائن أصلا، تتحرّى الذّات الكشف عن الحقيقة، حتى تخفف من انجراف رغبتها، بمعنى إنّ خطابها للآخر الّذي أعطى لنفسه إذن القداسة، لا يخلو من الإيمان بيد أنّ المعرفة، والإيمان بالله غير منفصلين عن رغبة تلك النفس في التعبير عمّا في ذاتها ، لكن! من دون رسم عناصر الهلع في ذلك التعبير، إنّ بنية الكلام تُعطي نزوعا نحو الرغبة في تأسيس رؤية تنأى بنفسها ــ بمقتضى مشروعيّة الطرح ــ عن كلّ ما هو فوضويّ، بوصفها بنية لها قدرة على امتلاك الإرث الحقيقي الّذي يؤسس، بمقتضى التّصور العقلاني، لما يمكن أن يضمن تواصليّة تؤمن بضرورة تعبير الذات عن نفسها بما هو نقي وصاف.

فليس من سبيل ، تطمئن به قلق ذاتك غير أن تكون لك القدرة على إيجاد قيم مرموقة؛ تجادل فيها عن نفسك، فالاحتكام إلى ما هو عنيف لا يفسّر بالضرورة رؤيتنا، إنّ ما يفرزه وعي القداسة من مساحة مشتركة للحوار يبقى فاعلا في ترسيخ مبادئها، فليس اختزال الآخرين بذي جدوى، فقانونك الخاص لا يمكن إلا أن يتجاهل إذا كنت:[xi]

لم ترَ ربّك

إلّا بالنّصل

وبالدّمْ

وأنا أبصرهُ....

في الكلمة

في النغمة

في زرقة عينيها

..... واليمْ

نعم ، لك أنْ تشتغل وفق رؤيتك الخاصة، إشارة إلى فهم ما ، وفلسفة اقتضاها التمييز ما بين الديني، وغير الديني، في آنٍ معا، بين الذّهني، والحسّي، فاستقلاليّة أحدهما عن الآخر ليست مجدية، فأحدهما متأثر بالآخر ، تأثر سحري؛ فافتراق البنيتين عن بعضهما، بهذا التّضاد: النصل/ الدم ــ الكلمة/ النغمة/ الزرقة / اليم، تنهض على أثر الفعاليّة الشعرية سرديّة طفيفة في عباراتها ، عميقة في دلالتها، تلائم التّضاد، وتقترن به ايقاعيّا ، عبر: الدم/ اليم ، لتظهر التقفية ، التّضاد، وتقلب استغراق هاجس (الناطق باسم الله) إلى واقع يمارسه الطرف الآخر عبر توظيف : الكلمة / النغمة/....؛ لأنها تنفتح على وسعها على الحب والجمال ، وهما أصلان في المقدس ، فالصّورة التي يرسمها الذّهن للمقدس، مكشوف نصفها ، والآخر ملتبسُ الغيابِ بالقداسة، إنّها تحتوى على معرفة تستنشق أنفاسها السّحريّة من هذا الرّبط الّذي وحّد بين السّري، والمكشوف، وكأنّ هيكل القداسة دليله وجود تلك العلاقة الجوهرية بين تجليات المقدس، والأثر في النفس؛ فالإيمان، لن يقف عند تلك الحدود، فهو في: كلمة/ نغمة/ زرقة عينين، إنّه في:[xii]

لماذا

لا تسمع

ربّك

في النّاي

فصوتُ النّاي ، أنّهُ خرجت من صدر موجوع، فصار صداها نغمةً من نغمات الوجود، تقرع الأسماع، فتحيل غفلتها إلى يقظة، تفسر معنى من معانيه، وتظهر حالات كشف لما هو قدسي، أو هي اختبار الروح ، وهي تنصتُ إلى إيمانها، أو هي صوت داخليّ مهيب، عكسته عفويّة الالتقاء ، بما هو قدسيّ؛ فتجلّى أثره نغما يبعث على الحياة، وهذا ما يمكنه فعلا أنْ يناغم الرّوح، فالإلهي

طاقة دفينة، في كلّ الوجود، تبعثه أدنى فكرة تدلّ عليه، تصير ملائمة لمزاجنا وتتحول في لحظتها المناسبة، إلى إيمان مطلق ، عاجز عن تحليل نفسه؛ لأنّ القوّة التي أرتنا الأشياء، وأسمعتنا صوتها الحيّ، تدفق من القلب، يأخذ مستقره عند الاطمئنان، وليس غير ذلك؛ فقوله:[xiii]

لم ترَ ربّك

إلّا بالنّصل

وبالدّمْ

إنّ هذا التكريس يدلل على عمق التنافر بين ما هو قدسي متجليا في مظاهر الوجود، وبين ما تمثله رؤية الآخر المحدود، فامتزاج الرؤيا يعني إيقاظ الروح ، بإحساسها بفيض القدسي على الوجود كلّه ، هذا المأمون الجانب، النّابض بالحياة؛ فالأحاسيس الفجة المتمثلة : بالنّصل / والدم وتحولها إلى فعل ، تحتاج إلى نسق منتظم من الأحاسيس الملئ بإشعاع القداسة، حتّى يستثير فيها النزوع إلى ما هو روحي، من دون حاجة إلى إراقة من نوع ما، فبعد الشّقة بين ما هو إلهيّ، قويّ، مؤثّر ، وبين ما يمكن أنْ يكون تواصلا ، صار يرسم مساحته بمجموعة من الوسائل التعبيريّة التي تكون أحياناً ردّة فعل عفويّة، تجاه المقدّس ، تخوض فيه النّفس جولةَ كشفٍ، تستطيع أنْ تمدّ مشاعرها بامتلاء حقيقيّ يبلور عمق تلك العلاقة.

في وسعنا أنْ نميّز ـ كما يجب ـ بين فهم حقيقة المقدس، والإيمان به ، وبين معناه الأعم، الّذي يستثير الدّجال، والنّاعت نفسه بالإيمان، إنّهما نتوءان . كلّ منهم يستحقّ النظر بعناية، فالمخيّلة التي تدرك بالحسّي ما هو غير حسّي- لها القدرة على استثارة تعبيرات القداسة في رؤيتها، وتنسّم أثر الايمان بالمقدس؛ لأنّها تترعرع بحسب ما يستيقظ فيها من سرّية الإنصات للحن الإيمان المناسب في تجاويف الوجود، والظّاهر للعيان في مرحلة الرّصد النهائي لهذه العلاقة، ونعني بذلك أثر المقدّس المتحقق في مظاهر الوجود. فالرؤية المتحققة في قوله:[xiv]

كيف رأينا الله

بنسغ الشّجرهْ

وتركناه

نسيناه

لكي نقاتل

من أجل الثمرةْ

مرتبط بالاستعداد للمناجزة في مضمار الوصول إلى الحقيقة في نقطتها الأولى، فتلك البنْياتُ الّتي انتجت المعنى، تنطوي على إحكام ذاتها، أو بالأحرى تفصح عن ما يتضمّنه سؤال الذّات عن مصير ما ستؤول إليه، وهي ناظرة إلى علاقتها بالله لذا من الحريّ أنْ يصير الجوهري، والعقلاني، احترازا للوصول إلى الحقيقة وإدراكها؛ حتّى يقيض لنا أن الثمرة إعلان صريح ، وحجة على استغراق المعرفة، مراحل نطقت أخيرا بهذا المعنى.

إنّ ما يتضمنه النص الآتي:[xv]

يا هذا الفان

ولتنظر

كيف تحاور ربّك والشيطان

أكثير أن تتعلم

كيف تحاور إنسان

ينبغي أن نلحظ فيه المعنى الّذي يستنهض ما يمكن أنْ يكوّن قيمة عليا، تصيب المرمى وتكون دليلا على إبلاغ معنى المقدّس ، في نبرة الحوار الدائر بين ذات الشّاعر ، والذّات الأخرى، التي تضع نفسها معيارا في كفّة ترجيح المقدّس من غيره. فليس غريباً أنْ تجد الذّات موضعها في هذا الطّقس المهيب المثير للدهشة ، والإعجاب في آن معا. فحين حاور الله الشيطانَ ـ في حضرة المقدس ـ معنصرا رؤيته بتعابير جدليّة تتطامن وطبيعته[xvi]، قال تعالى: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ، يأتي الإنسان، هذا المتدني الّذي يحاول أن يسدّ خواءه بما هو خليط من انطباعات مفرغة من الروحانيّة، وخفقة القداسة، ومن انعدام الوعي بذاته؛ ملغيا الآخر ، وبمنطق الشّرير يتعالى إحساسه بفردانيته، الّتي صورت تناقض تلك الرؤية مع حقيقة الإيمان، إنه حقاً، تقويض النفوس ، لجلالة ورهبة المقدس فيها. إنّ تلك الرؤية تتعلق بالإنسان من حيث هو حضور جوهري لا ينبغي إبعاد كينونته إلى الحدّ الّذي تسقط معه دعواه بالميتافيزيقية التي لا تحمل العبث، والاستغراق في نفي الذّات.

إنّ ما تبرزه صورة المقدس على امتداد طريق العلاقة معه، لابدّ أن يتكيّف بإحالة المواقف إلى مصدر الحقّ، وتقليل أثر الرهبة بالتفسير العقلاني للوصول إلى معنى المقدس، بالتمثل لإرادته، ففي قوله:[xvii]

فلتتعلم ـ من حكمته ـ

كيمياء الصّفح

وكنه القلب

لا بسيوفك

لا بخيولك

لا بقنابلك التفخيخيّة

و...............

أو ينصف حقّ

أو يعبد ربٌّ

بل بالحكمة

والرّحمة

والحبّ

يضع النّص خطوطاً واضحة باستعمال السياق الحكائي، حتّى يرشح بقصديّة واعية عن رؤية تعبر عن انتمائها عن طريق إيمانها يقينيّا أنّ انهيارها ، وما يصاحبه من جدل ملتبس يكون قابلا لحدوث الفاجعة، فإذا أردت أن تكون ، عليك أولاً أن تدفع بازدواجيتك إلى مهلكها، وأن تبسط نفوذ الإلهي في نفسك ، مستثيرا فيها ذلك النّور الضّئيل في قلبك ثانياً، فالتّحول الذي يخلق فيك إحساسا بالآخر ، شبيه بتحوّل الحديد إلى ذهب ، إنّه لا يحتاج إلى تفسير، ففي حضرة الله يتلاشى ذعرُ القلب، ويكون الوعي سُنّة لما هو روحي، عندئذٍ لن تحتاج في إقامة حجّتك إلى الاستبداد، فلا: السّيف/ ولا الخيول/ ولا القنابل المفخخة، ترغمك على أن تقيم ما تؤمن به ليكون حجة لك على الآخرين، فالمقابلة الطباقيّة الحاصلة في المقطع نفسه" إنّما تقدم لنا فهما أعمق من الفهم الجزئي"[xviii] ،يهيئ للمناخ النفسي ، تشكيل حيثياته بدقّة، ويخرج من أتون الاستغراق في التقليديّة، ويثير " العواطف نحو إدراك لحظة من التجانس الكوني"[xix] ليكون الله حاضرا في قلبك ، حكمة ، وحبّا، ورحمة، ليمثل القوّة المتعالية التي تفسرها مشاعر الإيمان.

وفي "الحلاج ثانية" يأخذ بنا النّص إلى الشّعور التّام، باستحواذ المقدّس علينا؛ إنّه يمتلك القدرة على زجّنا فيه، وزجّ نفسه فينا، إنّ تمازج ما هو غير مدرَك ، مع ما هو مدرك من موجوداته، يتحدّى تعبير انفصال الطبائع، ومناواةِ بعضها، نعم! لا يتحقق هذا القدر من الامتزاج إلّا بشرائط تبدو متعسرة، بيد أنّ الشاعر يتمكن من خلقها من خلال اللغة التي أعطاها الإحساس نفحة منه، فاستطاعت أن تقيّم جمال الوجود، وصلتها به، فيغدو تعرّفها الجمالي نسقاً للارتقاء نحو كشف سمو المخاطَب، فتبدو الذّات في خطابها، منفلتة من سجن ذاتها، فعندئذٍ تستطيع الارتقاء مع المطلق، لتدخل في اختبار فعليّ، شرطه الاقناع بدعوى التوحد في تلك الذّات، لشّدة وعيها، ورغبتها في استحصال شرف المعرفة، فقوله:[xx]

من ينقذني من بلواي

ما في الجبّة إلّاهُ

وما في الجبّة إلّايْ

وأنا الواحدُ

هو الواحدُ

كيف اتّحدا

كيف انفصلا

ـــ في لحظة سكر ـ

بين شكوكي فيه،

وتقواي

وهذا ما جعل الشاعر / الحلاج، يتوحد في الله، في لحظة سكر / في لحظة شكّ وتقوى؛ هذه اللحظة الخالدة! التي تنطوي في مكامنها، على محطات من الكشف سرعان ما يهذي بها لسان الوعيّ؛ ليجعلك إمّا هابطا إلى الحضيض، أو متعاليا، صوب التوحد مع المطلق، وأنت على طرفي نقيض!، فلا مناص من أن تبقى الذّات أبرع في التعبير عن رؤيتها، وهي تحاول بث مقترحها الجمالي، وفق أنموذج متكامل؛ لتؤلف ما يمكن أن يتوافر عليه حلمها، فهذا الامتزاج الكلي تشتغل رؤاه على طبيعة الاستعداد الذّهني، الّذي يعزز القيمة الحضارية، لمفهوم المقدس، والإيمان به، لينعكس ذلك الجوّ" ويجعلنا نحس بها كما يحس بها هو"[xxi]

إنّ مقدار الوعي الناتج ، تحيل إليه مفاهيم مطابقة لمستوى الإدراك، فإذا ما كانت متدنية ،كان الوعي مثلها، لا يرتبط بمحمول الذّات الوصفي، والشمولي، وهذا يستند في الأساس إلى إمكانات، خلق فضاء تصوّري، تحيل إليه معطيات الوجود الماثلة في حوار الشّاعر معها، معللا، ومبرراً، في مشهد من التأويلات، التي تخضع أحيانا إلى الخيال ، بوصفه " ثمرة من ثمرات الذّاكرة"[xxii] فالعبور بفكرة الوعي إلى مجالات أوسع للارتقاء، يجعل فكرة المقدس في وعينا، أوسع مما يجب، فمن أعطى لنفسه الحقّ في الاستحواذ بمحدوديّة تصوراته ممارسة القداسة، فهو يشّرع بما يشتهي من أجل ذاته، تحديدا، وهذا ما لا يمكن أن يكون، ففي قول الشاعر:[xxiii]

آيات

نُسختْ

آياتٍ

وتريد لرأسك أن يبقى

جلمودا

لا يتغيّر والسنوات

و....

الّذي يتناص فيه مع قوله تعالى:[xxiv](مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فالّذي أدرك ما في أنفسنا، في ظل انتقال الإحساس من ملابساته ، والكشف عن تناميه بالوازع الإيماني، استحسن أن يُحلَّ شيئا مكان آخر، لغاية ما، فكيف بمن يدرك ما في ذاته، لكنّه يأبى إلا أن يكون في مضمار تناقضه، متحجر العقل ، بليد الشعور!!

هذا المطلق المدرك بالفطرة، الماثل في هيأة الوجود الحسّي- تعاظما، وجمالا، وفي ميدان الروح استعدادا لدعم نزوعها نحو الارتقاء، أعظم من أنْ تصوره كلّ فئة بإدراكاتها الحسيّة التي لا يستيقظ فيها وعي المعرفة إلاّ بمقتضى تخيّلات متأرجحة، تحرّض على التّدني أكثر منه على التعالي، والاستزادة من نور الحقّ، فالله ليس كما توزعته الملل ، والنّحل ، والأهواء، هذه الكينونة، لابدّ أن تكون لابثة، بقوّة تتداخل فيها كلّ الاختلافات؛ لأنها تنطوي على مستوى " الإثارة لما بين أشياء العالم، والذّات الإنسانيّة من فعل، واستجابة، وتنافر، وتعاطف"، وغالبا ما يحقق الشّاعر هذا العمق في وضع موازنة حقيقيّة ، لإظهار حقيقتها :[xxv]

ربّي واحد

لا كاثوليكي لا بروستانتيّ

لا سنّي لا شيعيّ

من جزأه

من أوّله

من قوّله

يجب التسليم بوحدانيته، مهما اختلفت طرق الوصول إليه، وقد يكون هذا التنوّع ضربا من ضروب تنوع الإدراك، أو الفهم، الّذي يحسبه الآخر، تناقضا تامّا، مع حقيقة المقدس المطلق، الّتي لا يمكن إدراكها.

إنّ أثر الإيمان بما هو قدسيّ يرسم اكتماله في هذا التعالي عن كلّ ما هو متدنٍ، لترتقي النفس إلى مستوى الكمال. هذه ليست رغبة عابرة! إنّه النظام الّذي أوجده الإيمان ، وحدد ظروفه الوعي بالمقدّس، فكان أن صِير إلى منهج متكامل لإدارة الحياة ، بدءاً من صغيرات أمورها، إلى ما تعقّد منها، فهذا التعجب الّذي يفترضه الشّاعر، له مسوّغه:[xxvi]

عجبي ...

كيف لنصٍّ

ان يُشغل بامرأة تحمل أحطابا

ويغضّ الطرف

لمن سيؤول

الحكم

إنّ الخرق الذي يوهن مسيرة الحياة ، من غير شكّ يوهن الإحساس بالمقدس، بيد أنّ عناصر الوعي به تكاد تحجب بتناميها، ذلك الاستغراب الذي ينتابنا، أو الدهشة التي تستحوذ علينا، وربّما تبدو تهتكاً يفصح عن نوع العلاقة التي نقيمها مع المقدس، فيكون هكذا نوع من الخطاب تفتيشاً عن المعنى الحقيقي في بنية الوجود ، فعلى مستوى التّصورات الذهنيّة، ترشح رؤية تأويليّة تدفع العقل إلى تَرسُّم جدل تفرضه مجاسات الحس؛ بوصف الواقع المعيش هو البنية الأكثر جدلا من التصورات الذّهنية، فبين الشكّ واليقين، يأتي الاستفهام الإنكاري، المتناص في جملته مع قوله تعالى:(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) [xxvii]، ليعزز إشكاليّة الجبر التأويليّة تحاشيا من الخوض في معترك الصدام مع المقدس، وهذا لعمري، اكتمال لتعزيز البنية الإجرائيّة للمحمول الفكري الّذي تطلبه قوله:[xxviii]

.....

خلفاء

أربعة تركوا التّاريخ

وراءهم

مفتوح الفمْ

وبقينا للآن ، ننشف عنهم

بقع الدّمْ

هذا التأسيس لما طُرح تاليا، والمتمثل بالوعي التاريخي، وصيرورته إلى جدل دينيّ، كان مرتكز التقييد لفاعليّة المقدس ونوعيّة الخطاب معه، ذلك لأنّ الشعر برؤيته يتميّز بتصعيد روح الوعي، ويلفت الانتباه إلى ما هو موضع شكّ، على نحو لا يحمد عقباه. وفي قوله:[xxix]

رفعوا السّيف كتاب

كيف سنقراه

للقاتل أجرٌ

والمقتول له أجران

ولنا...

ليس لنا

ــ نحن المطحونين على الصّفين ــ

سوى

أنْ نحصي القتلى ى ى ى ، بأصابعنا

.... والآه

تنهض الفاعليّة الشعرية على فكرة التّضاد، الّذي يقترن بالجدل الدائر بين ما هو قدسي، متمثلا في المفعول به المعطوف على السّيف، (كتاب الله)، وبين الفاعل الدال عليه(الواو)، المتمثل بالجملة الفعليّة(رفعوا السيفَ)، تلك العلاقة التي تكاد تحطمها أسباب متّصلة بالتباس مفتعل بين القداسة

بشقيها: الزائفة/ الحقيقية، فالفعل قرن نفسه بالمقدس(كتاب الله) ، ليدل هذا الخطاب المتمثل بقوة محمولاته التي تسمح بتأويلات، تُستنتج من مجموعة الأنساق التي توافر عليها النّص، والمتمثلة بـ(بالقاتل، والقتلى، والمقتول، والمطحونين، ....) على أنّ المقدس يمثل خرقا لما هو متوقع، لقد ألبس نفسه لامة حرب ولن يهدأ إلا بالقتل ، الّذي يمثل علوّ إرادته، ليبقى فعله ناجزا في هؤلاء المطحونين الّذين لم يزالوا يعدّون قتلاهم الكثر(القتلى ى ى ى ى) بهذه الكيفية الدّالة على كثرة عديدهم، مع استمرارية فعل القتل، الّذي يلبي فضوله!

لتبقى إرادة الموت بالقتل مسيطرة، يقول الصّائغ:[xxx]

من يكشف هذي الغمّه

عن هذي الأمه

والنّصل ــ النّص؛

القاطعُ،

فوق الهامة

مربوط

ــ منذ قرون ــ

بخيوط من كلمه

....

إنّ عبارة (من يكشف هذي الغمة عن هذي الأمة)، تقدم وعيا، أكثر منه مشاعر تستيقظ، في لحظة، وتغفو في أخرى، فهي قراءة، لتاريخ الحقيقة الديّنيّة، وتنامي الحقيقة السّياسيّة؛ تلك القراءة التي تعنصر هذين المفهومين، وتؤدلجها؛ إنّ الوجهتين متضادتان، بحسب ما يحددهما من وعي، فانتقال الانحراف لأحدهما هو خطر يأخذ بإلحاحه، نحو مؤدى زائف، فاتساع دائرة الخلاف ؛ يجعل (الدّيني) مقصلة تشحذ نفسها ــ بجفاوة ملطخة بقداسة مفترضة ــ برقاب الجماهير، بحيث يبقى الوعي الديني متخبطا يبحث عن سموه ليس بما يقوله المقدس المطلق(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[xxxi] ، إنّه يغيّب العقلاني، ليغدو انحرافه صارخا، يعني إنه يبقى خارج دائرة الأخلاق، إذ يعتمد على وعي مختل، حتى يغدو هو القدسي، ويبقى الحسّ الديني ما يستشعره هو فقط، هذا النموذج الّذي يواصل إنصاف نفسه ـ بحسب رؤيته ـــ هابطٌ؛ لأنّ تعبيره عن الجدل الملتبس بين ما يراه هو، وبين ما يجب أن يكون، ينفي كلّ احتمال إيجابيّ، فاقتراحه يستمدّه من وعيه هو، فتسلّطُ (النّص/ السّيف) بوصفه شاملا، ومتفرداً، يمثل السّد الواجب إقامته في وجه التّحاور، مما يؤدي إلى انهيار فعل(المقدّس)، لخلق الواقع الّذي يؤمن به هو، ويُأمن به ديمومته، بوصف النّص خاضع للتأويل!

إنّ ما جرى اعتماده من رؤى، كان أوفى في التّعبير عن مدى الإلحاح الّذي يعنصر- رؤية الجانب غير العقلاني، ففي غمرة التّطور ، وتلك الصّرخات التي تنشد التفسير لمعنى ما يكون، تبقى الثّقة في هذا المطلق متوقفة على ما يمكن أنْ يُناظر الحاجة الملحة، في تخفيف هذا التّخبط؛ ليكون الوعي ، وعي ضرورة، وعيا يستشرف رؤية أرفع وأكمل من سواها، في تمثيل الاختيار الدّيني، بدلا عن السّلوكيات التي تُجسّدُ الدّيني المزعوم!

إنّ تحاور الوعي، بتنوعاته، هو المتن الحقيقي الّذي يوجه الإيمان بالمقدس، والنّزوع إلى مشهد تأويلات، مفعمة بالحياة، لاستظهار عظمة القدسي، وهو يفسر وجوده في الوجود، مما يخلق فضاءً لمشاهدات باطنيّة واعية، يتمثّل فيها السّمو، فهذا التّلون في(الآيات/ الأحكام/ الأطياب)، يتمركز في التّعبير عن انفتاح ينتهي، بنقطة، تنفذ منها فكرة، الخلق، وصيرورته، إنّها نقطة بعث الحياة، وليس تغييبها خلف(السّيف/ الحجاب)، لتفكيك وحدة الوجود، وخلق جدل فضفاض! ليكون التبرير انهياراً لصورة المقدس، في تأويلات مفارقة تمثل انزياحا يسقطنا في وهاد الأدلجة.

المقاطع (13، و14، و15)[xxxii] حوار صريح مع المقدّس، يسلّط الضوء على متن يتفرد برؤيته، ليكون أنموذجا متكاملا ، ممثلاً جميع احتمالات الرّغبة المتعالية، عبر توصيف نفسي ، مرتبط بكينونة الذّات، واضعا كلّ ما يمكن أنْ تنطوي عليه تلك الذّات من ممكنات تحسم احساسها بذاتها، وتكافؤ ذلك الإحساس مع الآخر، تحفيزا لاستقرار ناجم عن احترام في عين ذواتنا.

إنّ ما ينطبق عليه اختيار الإلهي ليس بطولة ، أو تفسيرا مضطهدا، إنّه لا يمكن تحديده، على هذا النّحو الّذي نقدره نحن، فهو ليس رؤية حلمية، أو إثارة عاطفيّة من نوع ما، إنها رؤية تمثل تجسيدا

صارخاً لواقع ، يعكس صورته في(زوجات أربع/ نصف ميراث الرّجل/ نصف شهادته/ 1000 نبي ، ولا رسولة !!.

نخلص مما سبق إلى أنَّ الجانب السّري من المقدس وإن صنعناه بأنفسنا من خلال اللغة ، يبقى غامضا ، مأمون الجانب، قد نفتتن به في لا وعينا ، وحينما نشعر بالرّغبة فيه، ذلك الشّعور العارم ، نعاود ترتيب أفكارنا ، بعد أن أُخترق نظامها عن طريق الخلاص إلى حالات متنوعة من التصورات، بالاستحواذ على تلك الخروقات التي أنتجها لاوعينا؛ لتكون تلك المراسيم عنصراً من عناصر الرّهبة والانجذاب، وكأنّها من قبيل الوعي البدائي، تسترعي انتباه حواسنا، وتستنقذنا من الشكوك، التي تقيّد طبيعتنا البشرية، وتسيطر عليها بأوهام معقّدة.

خلاصة واستنتاجات:

1. تعدّ تجربة المقدس من تلك التجارب التي تصطف لتدافع عن وجودها كونها تؤدي دورا مهما عبر محمولاتها التي تتأرجح بين مفهوم فكريّ خالص، وبين إحساس شديد، يختصر مسافة الوعي، وكأنّه رؤية ساذجة لاتني أن تكون سبيلا للتعبير عن عاطفة دينيّة بدائية تعترض مقومات العقل على نحو ما يشاهد ــ مثلا ــ عند الصوفية.
2. إنّ إنزال الوعي الدّيني، والإحساس بالمقدس، عبر مشاعر حميمة ، تؤسسها اللغة في الشعر ، وبوعي يتطامن مع تلك اللغة التي يتمّ انتزاعها من إيقاعها الّذي يلازمه التوقع العقلي، يحقق للغة معيار (فوق الشّعرية)؛ لأنّ تحديد ماهيتها الجديدة، لا يقتصر على الولوج في مفاوز روحانية بحتة، بل تتوزعها فكرة النهوض بطقوس جديدة تؤدي فيها اللغة قدراتها المضافة التي ينتجها ألق الاستغراق في الانفعالات من غير توسل يفترضه التعبير اللغوي.
3. إنّ نتائج التعبير عن المقدّس في الشّعر لا يمكن أن نفيد منها كثيراً في فهم الإيمان، على أنها بمقدار ما تساعدنا في استجلاء تركيبة فكريّة، وتعابير مشوبة بالقداسة وكذلك معاني ربّما تبدو منحرفة أحيانا ؛ إلاّ أنّ الاكتفاء بطريقة ما تُفهَم فيها الحقيقة وتُقال، أجدى في رفد النصوص الشعرية برؤية القداسة.

4. يتجه الأدب عموما ، لاسيما الشّعر منه على توظيف المقدس من قبيل الاهتمام به بوصفه بنية تكوينيّة، لها دورها كصوت شعري يتسم بالجنوح إلى عالم ما فوق الطبيعة عن طريق خرق الأسباب الايديولوجيّة، التي يحاول الشعر جادّا تجنبها .
5. إنّ مقدار الوعي بالمقدس ، تحيل إليه مفاهيم مطابقة لمستوى الإدراك، فإذا ما كانت متدنية ، كان الوعي مثلها، لا يرتبط بمحمول الذّات الوصفي، والشمولي، وهذا يستند في الأساس إلى إمكانات، خلق فضاء تصوّري، تحيل إليه معطيات الوجود الماثلة في حوار الشّاعر معها، معللا، ومبرراً، في مشهد من التأويلات، التي تخضع أحيانا إلى الخيال.
6. إنّ تحاور الوعي، بتنوعاته، هو المتن الحقيقي الّذي يوجه الإيمان بالمقدس، والنّزوع إلى مشهد تأويلات، مفعمة بالحياة، لاستظهار عظمة القدسي، وهو يفسر وجوده في الوجود، مما يخلق فضاءً لمشاهدات باطنيّة واعية، يتمثّل فيها السّمو.

الإحالات:

70. في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1987: 58.
71. التفكيك ، الأصول والمقالات، عبدالله ابراهيم، دار عيون المقالات، الدار البيضاء، د، ط ، 1990: 70.
72. لغة الشعر، رجاء عيد، منشأة المعارف المصريّة، الاسكندرية، مصر، د.ط، د.ت: 32.
73. الخيال ، مفهوماته ووظائفه، د. عاطف جودة نصر ، الهيأة المصرية للكتاب، د.ط، 1984: 262.
74.الصورة في النقد الأدبي ، د. عبد القدر الرباعي ، مجلة المعرفة ، ع204، س17، 1979: 27.
75.التحليل النقدي والجمالي للأدب، د. عناد غزوان، دار آفاق عربية ، العراق ، بغداد، د.ط، 1985: 36.
76.الصورة في النقد الأدبي: 36.
77.الرمز الشعري عند الصوفية، عاطف جودة نصر، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، 1998: 108.
78. الرؤيا والتأويل، عبد القادر فيدوخ، دار الوصال، وهران، ط1، 1994:55.
79. و... شعر، عدنان الصّائغ، الكوكب، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011: 177ـ178.
80. م.ن:178.
81. و... شعر:181.
82. و... شعر:178.
83. م. ن :178ـ179.
84.و... الشعر:179.
85. الأعراف/ 12ـ18

86. و... شعر: 179ـ180.

87. التفسير النفسي للأدب، د. عزالدين اسماعيل، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت، د.ط، د.ت :57.

88. الشعر والتجربة، ارشيبالد ماكليش، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، لبنان، د.ط، 1963: 81.

89.و... شعر:180ــ181.

90. التجربة الخلاقة، س .م بورا، ترجمة: سلافة حجاوي، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، د.ط، 1978: 12.

91. الإبداع في الشعر، ترجمة: شاكر عبد الحميد ، مجلة الدوحة، ع69، 1981: 114.

92. و... شعر:181.

93. البقرة/ 106

94. و... شعر:182.

95.و...شعر:183.

96. المسد/4.

97. و... شعر:182ـ183.

98. و... شعر:183ـ184.

99. و... شعر:184.

100. النحل/125.

101.ينظر. و... شعر:185ـ188.

مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- إبداع في الشعر، ترجمة: شاكر عبد الحميد ، مجلة الدوحة، ع69، 1981.
- التجربة الخلاقة، س .م بورا، ترجمة: سلافة حجاوي، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، د.ط، 1978.
- التفسير النفسي للأدب، د. عزالدين اسماعيل، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت، د.ط، د.ت .
- تحليل النقدي والجمالي للأدب، د. عناد غزوان، دار آفاق عربية ، العراق ، بغداد، د.ط، 1985.
- التفكيك ، الأصول والمقالات، عبدالله ابراهيم، دار عيون المقالات، الدار البيضاء، د،ط، 1990.

- الخيال ، مفهوماته ووظائفه، د. عاطف جودة نصر ، الهيأة المصرية للكتاب، د.ط، 1984.
- رؤيا والتأويل، عبد القادر فيدوح، دار الوصال، وهران، ط1، 1994.
- رمز الشعري عند الصوفية، عاطف جودة نصر، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، 1998.
- الشعر والتجربة، ارشيبالد ماكليش، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، لبنان، د.ط، 1963.
- صورة في النقد الأدبي ، د. عبد القدر الرباعي ، مجلة المعرفة ، ع204، س17، 1979.
- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1987.
- لغة الشعر، رجاء عيد، منشأة المعارف المصريّة، الاسكندرية، مصر، د.ط، د.ت.
- و... شعر، عدنان الصّائغ، الكوكب، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011.